

التحرير والتنوير

ولكون الإيمان مقصودا به أنه مرجو منهم جيء فيه بصيغة المضارع إذ ليس المقصود أن في ذلك آيات للذين آمنوا لأن ذلك حاصل بالفحوى والألوية فصار المعنى : أن في ذلك آيات للمؤمنين ولمن يرجى منهم الإيمان عند النظر في الأدلة . وقريب من هذا المعنى قوله تعالى (إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) . ولهذا خولف بين ما هنا وبين ما في سورة يونس إذ قال (هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون) لأن آية يونس مسوقة مساق الاستدلال والامتنان فخطب بها جميع الناس من مؤمن وكافر فجاءت بصيغة الخطاب وجعلت دلالتها لكل من يسمع أدلة القرآن فمنهم مهتد وضال ولذلك جيء فيها بفعل (يسمعون) المؤذن بالامتنال والإقبال على طلب الهدى .

وأما هذه الآية فمسوقة مساق التعجيب والتوبيخ فجعل ما فيها آيات لمن الإيمان من شأنهم ليفيد بمفهومهم أنه لا تحصل منه دلالة لمن ليس من شأنهم الإنصاف والاعتراف ولذلك أُوثر فيه فعل (يؤمنون) .

وجاء ما في الليل من الخصوصية بصيغة التعليل باللام بقوله (ليسكنوا فيه) وما في النهار بصيغة مفعول الجعل بقوله (مبصرا) تفننا ولما يفيد (مبصرا) من المبالغة . والمعنى على التعليل والمفعول واحد في المآل . وبهذا قال في الكشف (التقابل مراعي من حيث المعنى وهكذا النظم المطبوع غير المتكلف) أي ففي الآية احتباك إذ المعنى : جعلنا الليل مظلمًا ليسكنوا فيه والنهار مبصرا لينتشدوا فيه .

واعلم أن ما قرر هنا يأتي في آية سورة يونس عدا ما هو من وجوه الفروق البلاغية فارجع إليها هنالك .

(ويوم ينفخ في الصور ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء) وكل أتوه داخرين [87] (عطف على (ويوم نحشر من كل أمة فوجا) عاد به السياق إلى الموعدة والوعيد فإنهم لما ذكروا بيوم الحشر إلى النار ذكروا أيضا بما قبل ذلك وهو يوم النفخ في الصور تسجيلًا عليهم بإثبات وقوع البعث وإنذار بما يعقبه مما دل عليه قوله (أتوه داخرين) وقوله (ففزع من في السماوات ومن في الأرض إلا من شاء) .

والنفخ في الصور تقدم في وله (وله الملك يوم ينفخ في الصور) في سورة الأنعام وهو تقريب لكيفية صدور الأمر التكويني لإحياء الأموات وهو النفخة الثانية المذكورة في قوله تعالى (ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون) وذلك هو يوم الحساب . وأما النفخة الأولى فهي نفخة يعني بها الإحياء أي نفخ الأرواح في أجسامها وهي ساعة انقضاء الحياة

الدنيا فهم يصعقون ولهذا فرع عليه قوله (ففرع من في السماوات ومن في الأرض) أي عقبة حصول الفرع وهو الخوف من عاقبة الحساب ومشاهدة معدات العذاب فكل أحد يخشى أن يكون معذبا فالفرع حاصل مما بعد النفخة وليس هو فرعا من النفخة لأن الناس حين النفخة أموات . والاستثناء مجمل يبينه قوله تعالى بعد (من جاء بالحسنة فله خير منها وهم من فرع يومئذ آمنون) وقوله (إن الذين سبقوا لهم منا الحسنی) إلى قوله (لا يحزنهم الفرع الأكبر) وذلك بأن يبادرهم الملائكة بالبشارة . قال تعالى (وتلقاهم الملائكة هذا يومكم الذي كنتم توعدون) وقال (لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة) .
وجيء بصيغة الماضي في قوله (ففرع) مع أن النفخ مستقبل لإشعار بتحقيق الفرع وأنه واقع لا محالة كقوله (أتى أمرنا) لأن الماضي يستلزم التحقق فصيغة الماضي كناية عن التحقق وقرينة الاستقبال ظاهرة من المضارع في قوله (ينفخ) .
والداخرون : الصاغرون . أي الأذلاء يقال : دخر بوزن منع وفرح والمصدر الدخر بالتحريك والدخور .

وضمير الغيبة الظاهر في (أتوه) عائد إلى اسم الجلالة والإتيان إلى الإحصاء في مكان قضائه ويجوز أن يعود الضمير على (يوم ينفخ في الصور) على تقدير : أتون فيه والمضاف إليه (كل) المعوض عنه التنوين تقديره : من فرع ممن في السماوات والأرض أتوه داخرين . وأما من استثنى أن لا يفرعوا فهم لا يرهق وجوههم قتر ولا ذلة .
وقرأ الجمهور (أتوه) بصيغة اسم الفاعل من أتى . وقرأ حمزة وحفص (أتوه) بصيغة فعل الماضي فهو كقوله (ففرع)